ما مهمتنا؟.

من أجل أن نفقه حقيقة الانتصار لابد من أن نعرف المهمة التي كلفنا الله بها، فبمقدار القيام بهذه المهمة يتحقق الانتصار.

هل مهمتنا أن نقوم بهداية الناس؟ أو مهمتنا أن نسعى ونجدّ في دعوة الناس للهداية والإيمان؟.

هل مهمتنا أن نجبر الناس على الإيمان؟ أو مهمتنا أن نبيّن لهم الطريق إلى الإيمان؟ إن مهمة الأنبياء والرسل والدعاة تتلخص في كلمة واحدة، إنها: البلاغ.

بل إن مسئوليتهم محصورة في هذا الجانب وحده.

والآيات في هذا كثيرة، جاءت مقررة لهذه الحقيقة، التي تغيب عن أذهان كثير من الدعاة والمصلحين.

ونقف قليلاً مع بعض هذه الآيات: قال ـ سبحانه ـ: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾. [سورة النحل، الآية: ٣٥]. وقال: ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾. [سورة النور، الآية: ٥٤]. وقال في سورة الشورى: ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظًا إن عليك إلّا البلاغ﴾. [سورة الشورى، الآية: ٤٨]. وفي سورة أخرى: ﴿فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾. [سورة التغابن، الآية: ١٢]. . وفي المائدة: ﴿فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾. [سورة المائدة، الآية: ٩٢].

قال الإمام الطبري في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وإن تولّوا فإنّما عليك البلاغ﴾. [سورة آل عمران، الآية: ٢٠]. . إن أدبروا معرضين عمّا تدعوهم إليه من الإسلام، وإخلاص التوحيد لله رب العالمين، فإنما أنت رسول مبلغ، وليس عليك غير إبلاغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه من خلقي، وأداء ما كلفتك من طاعتي(١٢).

وقال ابن عاشور في الآية نفسها: وإن تولوا وأعرضوا عن قولك لهم: آسلمتم، فليس عليك من إعراضهم تبعة، فإنما عليك البلاغ، فقوله: ﴿فإنما عليك البلاغ﴾. وقع موقع جواب الشرط، وهو في المعنى علة الجواب، فوقوعه موقع الجواب إيجاز بديع، أي لا تحزن، ولا تظنن أن عدم اهتدائهم، وخيبتك في تحصيل إسلامهم، كان لتقصير منك، إذ لم تبعث إلّا للتبليغ، لا لتحصيل اهتداء المبلَّغ إليهم(١٣).

ومن أجل تأكيد هذه الحقيقة، وهي أن مهمّة الأنبياء والرسل هي البلاغ، جاءت آيات أخرى تبين أن هداية الناس ليست لا للأنبياء ولا للرسل ولا لغيرهم، قال ـ سبحانه ـ: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾. [سورة يونس، الآية: ٩٩]. وقال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿إنك لا

(١٢) انظر تفسير الطبري ٣/٢١٥.

(١٣) التحرير والتنوير ٣/٢٠٥.

تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾. [سورة القصص، الآية: ٥٦]. وقال: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾. [سورة الكهف، الآية: ٦]. ومثلها: ﴿لعلك باخع نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾. [سورة الشعراء، الآية: ٣].

وفي سورة أخرى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾. [سورة فاطر، الآية: ٨].

وتتحدد مهمتنا بقول الحق ـ وهو البلاغ ـ كما في هذه الآية: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. [سورة الكهف، الآية: ٢٩].

ونختم هذه الآيات بهاتين الآيتين: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقًا في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٣٥].

أما آية الذاريات فجاءت مؤكدة المعنى بأسلوب آخر: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم* وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾. [سورة الذاريات، الآيتان: ٥٤، ٥٥].

هذه بعض الآيات التي وردت في كتاب الله محددة مهمة الأنبياء والرسل والدعاة، ونافية أيّ مهمة أخرى قد يتصور الدعاة أنّها من مسئوليتهم، وهي ليست كذلك.

إن مهمتنا هي البلاغ، وليس الاكراه، والسعي لهداية الناس، وليس تحقيق هدايتهم، واتخاذ الخطوات والسبل المشروعة لتغيير الواقع السيء، لا تغيّر الواقع.

إننا عندما ندرك هذه الحقائق، ونتعامل معها، نفهم حقيقة النصر الذي نسعى للفوز به، ونعلم من المنتصر ومن المهزوم، وعندما تغيب هذه الأسس والأصول والمنطلقات قد يحيد الداعية عن الطريق، ويخشى أن يكون ممن قال الله فيه: ﴿قل هل نُنَبِّئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسَبون أنهم يُحسنون صنعًا﴾. [سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤].

وإن كانت هاتان الآيتان في الكفار، فإنّ معناهما قد يشمل في بعض مدلوله أولئك.